

## تأثير الإسلام على أدب الرثاء (تحليل دالية حسان في رثاء الرسول نموذجاً)

سيد أمير محمود أنوار\*

ناصر حسيني\*\*

### الملخص

كان الإسلام مؤثراً على كل زوايا الحياة البشرية وغير العقائد والأفكار وجاء بمعان سامية في كل الأمور بما فيها الشعر والرثاء. وثمة جوانب مهمة من الأدب مؤثرة بالإسلام تحتاج إلى من يجلو صدأ الإهمال عنها. وعندما رأيت التأثير الملحوظ للإسلام في أدب الرثاء يحدوني الأمل إلى إضافة مقال جديد في هذا الباب. وعندما شرعت في التعرّض للموضوع، وضعت نصب عيني أن تشمل الدراسة نظرة الشعراء الجاهليين إلى الدّهر والكون ومشكلة البقاء والفناء، ونظرة الشعراء الإسلاميين الذين تأثروا بمبادئ الإسلام في الموت والحياة. وبعد مقارنة وجيزة بين الرثاء الجاهلي والرثاء الإسلامي، تطرقت إلى المراثي النبوية وأتيت بأمثلة من بعض الشعراء ومن خلال مراثيهم بينت أثر الإسلام في ألفاظهم وأساليبهم ومعانيهم. وقدمت دراسة فنيّة على الدالّية الشهيرة لحسان بن ثابت الأنصاري في رثاء الرسول بصفته شاعر النبي المفضّل مصحوباً بتحليل في المعنى واللفظ والأسلوب، راجياً أن تكون هذه الدراسة ساهمة في أداء خدمة زهيدة للأدب العربي المبين ومُلقيه الضوء على دالية حسان في رثاء خير الإنسان.

الكلمات الدلالية: المراثية، الأدب الجاهلي، الأدب الإسلامي، الإسلام، النبي، حسان.

\*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات بطهران.

\*\* خريج جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات بطهران.

## المقدمة

الرتاء من الموضوعات البارزة في الشعر العربي ولاسيما الإسلامي، فقد بكى الشعراء من رحلوا عن دنياهم، والرتاء بكاء متعمق في القدم، منذ وجد الإنسان نفسه على هذه المعمورة ووجد أمامه هذا المصير المحزن الذي لا مفرّ منه، ولا بدّ أن يصير إليه فيصبح غباراً وكأنّه لم يكن شيئاً.

وقد سلك الشعراء في رثائهم ثلاثة سبل هي: الندب والتأبين والعزاء. أمّا الندب فبكاء الأهل والأقارب حين أنشبت المنية أظفارها منهم، فيئنّ الشاعر ويتفجّع من هول الإصابة ترنّح الذبيح، وتسيل دموعه مدراراً وتتدفّق كلمات الشاعر باكية محزونة فيها لوعة القلب وحرقتة، والأبيات بكاء مشجى كلّها آلام وحسرات، كأنّها تسيل من جروح في القلوب.

وأما التأبين ليس بكاءً ولا نشيجاً كالندب بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن والدمع وإذا يخر نجم لامع من سماء المجتمع، فيشيد به الشعراء منوّهين بمنزلته السامية في الدين والأخلاق والأدب والسياسة، وكأنّهم يريدون تصوير خسارة الناس فيه، فالشاعر يحاول التعبير عن حزن الجماعة وتسجيل فضائل الفقيده في ذاكرة التاريخ.

وأما العزاء مرتبة فوق التأبين عقلية والشاعر في هذه المرتبة يتأمّل في حقيقة الموت والحياة وقد يصله هذا التفكير في جوهر الحياة إلى معان فلسفية وحكمية عميقة وهو يتطرّق إلى حكمة الوجود وفلسفة الخلود ويتذكّر أنّ الحياة ظلّ لا يدوم، وأنّ الدنيا إلى التباب وكلّ شيء مصيره الفناء، ولكن إذا جاء الإسلام غير المقياس والميزان وحالت الأحوال ونسخت العقائد والأفكار وبقيم جديدة سامية قضى على أفكار جاهلية بكلّ ما فيها من كهانة وسحر وخرافة، وبذلك ارتقى عقل الإنسان، وأمعن النظر في الكون والحيوان، وعرف بعد تأمّل أنّه لم يخلق عبثاً وأنّ الله الواحد هو الذي دبّره وأحكم نظامه، وأنّ خلود الإنسان في الدنيا مستحيل، وإنّما الخلود في الآخرة، إمّا في نعيم الجنة أو عذاب السعير. (الشورى، ١٩٩٥م: صص ٥-٢٣؛ القظ، ١٩٧٩م؛ بشير النعمة، ١٩٩٧م)

كانت العرب في جاهليتها على إرث من آباؤهم، في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وأفكارهم، فلمّا جاء الله عزّ وجلّ بالإسلام، حالت الأحوال، وتغيّرت الموازين. ففي



الجاهليّة وقف الإنسان عند الموت وفكّر فيه، وانتهى إلى أنّه حقيقة محتومة، ومشروع لا بدّ من وروده، فالموت قدر لا مفرّ منه وهو النهاية لكلّ ذى حياة، الفناء لكلّ شىء. ومن نتائج هذه الحتمية أنّه شاع نوع من الجبرية العميقة فى نفوس الشعراء الجاهليين، وفشى اليأس من غاية الحياة فى مرآئهم. وكان من ثمار الشعور بحتمية الموت والفناء التهافت على لذات الحياة ومتعتها، فما دام الموت يترصّده فى كل خطوة، ومادامت الحياة ستنتهى إلى رمس مظلم فى صحراء مقفرة، فليتزوّد منها ما استطاع، وليغرق نفسه فى لذائذها ومباهجها؛ فقد لا تتاح له هناك حياة مثل هذه الحياة. ومادام هؤلاء لا يؤمنون بالبعث والحساب فقد ارتبطت قضية الخلود عندهم بطريق جهاد النفس فى الحرب وإتلافها فى المروءة والكرم باعتبار أن الذكرى للإنسان عمر ثان. فالإنسان يبلى بلاء حسناً فى الحرب والنوال والثأر أو الكرم أو المروءة ليظفر بالخلود بعد الموت بترديد اسمه على ألسنة الناس.

تلك كانت نظرة الجاهليين للموت والبعث والحشر. وعندما جاء الإسلام اتّضحت أمام الشاعر الجاهلى الذى دخل الإسلام معالم الدين الجديد وتعاليمه، ممّا كان له أثر مباشر فى تعميق الشاعر عن حقيقة حياة الدّنيا ومتاعها الزائل، وما وراء هذه الحياة من موت وفناء ونشور وحساب وجزاء.

رسم القرآن الكريم والحديث الشريف صورة واضحة لهذه الحقيقة، وفى الإسلام فناء الدّنيا أمرٌ لا محالة واقع. ومن ثمّ وجب على الإنسان ألاّ يفتنّ بزخرفها وأنّ يعمل حساب يوم تُعرض فيه أعمال الخلق على الخالق، ومن عمل صالحاً فنعم أجر الصالحين، ومن عمل سوءاً فجزاؤه من جنس عمله وجاء القرآن بالأمثال الفريدة والحكم المفيدة فى الحياة وزوّد الأدب العربى والمرائى بمعان جليلة رفيعة والمراد من الأمثال القرآنية هو: «عدّة من الآيات فى الذكر الحكيم التى أصبحت متداولة على ألسنة الناس لبلاغتها السامية وانسجامها الكامل وبيانها العذب السلسل ومعناها العميق.» (فضلية الأدب المقارن، جامعة آزاد الإسلامية فرع جيرفت، العدد التاسع: ١٦٤)

والأمثال القرآنية فى طوايا المرآئى عديدة وهنا الأمثال التى تتطرّق إلى الموت الفناء والبعث والجزاء، وقد نرى فى المرآئى التأثير الملحوظ من الأسلوب القرآنى الناصع

في جوهره المعاني وشاكلة الألفاظ، وشعراء الرثاء يتحدثون عن حكمة الوجود وحلم الخلود ويتذكرون أن كل شيء إلا وجهه - عز وجل - لا يدوم، الموت مدرك الإنسان في أي حال يكون والأستاذ الباحث على رضا ميرزا محمد جاء ببعض من هذه الأمثال القرآنية في مقاله، منها:

﴿أَيْنَمَا تُولُوا فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥)، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ (النساء: ٧٨)، ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً﴾ (التور: ٣٩)، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨)، ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦)، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٦-٢٧)، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: ١٤)، ﴿وَلَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٣)، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩) (مجلة الأدب المقارن، جامعة آزاد الإسلامية في جيرفت، العدد التاسع: ١٨٣-١٦٦) وهكذا أثرت المبادئ الإسلامية السامية في نفوس الناس بما فيهم الشعراء. ونرى صدى هذا التأثير بوضوح في المراثي الإسلامية على العموم ومرثية حسان شاعر الرسول على الخصوص.

### مراثي الرسول

إذا لحق النبي بجوار ربّه الذي اصطفاه وأفل شمس الرسالة، وتسربّ النبا الفادح، وأظلمت آفاق الدنيا، وقد استحالت المدينة المنورة إلى بركان البكاء والحزن، وفزع المؤمنون لهذا النبا العظيم، وهم لا يصدقون موت النبي (ص) وما نزلت السكينة على قلوبهم، لولا هذه الآيات غير المذكورة في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠) ﴿أَفَأَنْ مَّتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ \* كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (الأنبياء: ٣٤)

وعمّ الناس الحزن، فضجّت أجواء المدينة بالنشيج والبكاء، وارتفعت أصوات الشعراء في أرجاء الأرض، معبرة عن مشاعر أصحابها الحزينة ومفصحة عن لوعة قلوبهم. وقد وصلت إلينا صور كثيرة من هذه الأشعار الباكية الحزينة. والشعر الذي بين أيدينا من



مراثى الرسول شعر العاطفة الخاصة، المعبر عن عظم المصيبة في فقدته وخسارة الأمة بفراقه، فيرتفع صوت الشعر ليصوّر هول ذلك اليوم وفزع ذلك المصاب الجلل، فبادر الشعراء إلى رثائه، وكان الأنصار أسرع الناس إلى بكاء النبي، كما كانوا أسرع الناس إلى نصرته والدفاع عنه.

فحسان بن ثابت يرثيه في عدة قصائد نرى فيها لوعته ووجده وبيكيه بعبارات حارقة مبكية وألغاز محزنة مشحونة بالتحسر والتفجع ويصوّر نفسه وعيناه كأنما كحلت بالسهر والأرق والدمع جزعاً على خير من وطئ الأرض الذي أصبح ثاوياً التراب في يوم الإثنين فظلّ بعد وفاته متبلّداً، فهو يتمنى ألا يولد ولا يعيش بعد النبي راجياً أن تجمعه المنية مع النبي في جنة الفردوس ويرسم لنا فداحة الأمر لأنصار الرسول، فيقول:

مَا بِالْ عَيْنِكَ لَا تَتَّامُ كَأَنَّمَا  
كُحِلَّتْ مَا قِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ  
جَزَعًا عَلَى الْمَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِيًا  
يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى لَا تَبْعَدِ  
بَأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ  
فِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ النَّبِيُّ الْمُهْتَدِي  
أَقِيمُ بَعْدَكَ بِالْمَدِينَةِ بَيْنَهُمْ  
يَا لَيْتَنِي صُبْحْتُ سُمَّ الْأَسْوَدِ

(الأنصاري، ١٩٨٠م: ١٤٧)

ولحسان قصيدة شهيرة طويلة أخرى في رثاء الرسول، مطلعها:

بَطِيئَةٌ رَسْمٌ لِلرُّسُولِ وَمَعْهَدٌ  
مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفَّوْا الرُّسُومُ وَتَهَمُّدٌ

(المرجع نفسه: ١٤٥)

أما كعب بن مالك فقد قلّ رثاءه للنبي، كأنّ لسانه عقد بالفاجعة وكأنّ عبقريته في إنشاء الشعر أصيبت بالجفاف. لكنّه رثى الرسول المبشّر النذير الداعي إلى الله السراج المنير بقصيدة يقول في بعض أبياتها:

يَا عَيْنُ فَا بَكِي لِذِمَعِ ذَرَى  
وَبَكِي الرُّسُولِ وَحُقُّ الْبُكَاءِ  
عَلَى سَيِّدِ مَا جَدَّ جَحْفَلِ  
وَكَانَ بَشِيرًا لَنَا مُنْذِرًا  
لِخَيْرِ الْبَرِيَةِ وَالْمُصْطَفَى  
عَلَيْهِ لَدَى الْحَرْبِ عِنْدَ اللَّقَاءِ  
وَخَيْرِ الْأَنَامِ وَخَيْرِ اللَّهَاءِ  
وَنُورًا لَنَا ضَوْؤُهُ قَدْ أَضَاءَ

فَأَتَقَدْنَا اللَّهَ فِي نُورِهِ وَنَجَّيْ بِرَحْمَتِهِ مِنْ لُظَى

(كعب بن مالك، ١٩٦٥م: ٢٥٥)

وقد بكى الرسول شعراء من القبائل كعامر بن الطفيل يصور بكاء الأرض والسماء على نور الحق ومنهاج الهدى:

بَكَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ عَلَيَّ      النُّورِ الَّذِي كَانَ لِلْعِبَادِ سِرَاجًا  
مَنْ هُدِينَا بِهِ إِلَى سُبُلِ الْحَقِّ      وَكُنَّا لَا نَعْرِفُ الْمُنْهَاجَا

(ابن سعد، ١٣٢٢ق: ٩٢)

وليس بغريب أن تساهم النساء الشواعر في البكاء على الرسول، والنساء كن قد تشاركن الشعراء في أى فن من الفنون الشعرية ولا سيما فى الرثاء. و«النساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة وأشدّهن جزعاً على هالك، لما ركّب الله عزّ وجلّ فى طبعهنّ من الحُور وضعف العزيمة.» (القيروانى، لاتا: ١٧١)

وهكذا ساهمت النساء فى رثاء النبى، فالرسول كان يجلّ المرأة ويحسن إليها، ويعطف على وضعها، وينجيها من براثن الظلم والغيرة العمياء والجاهلية والإرهاق والوآد؛ ويشدّ بساعدها ويرتقاها إلى مستوى الرجل، كذلك لم يكن الرسول المرثى فرداً عادياً أو ملكاً أو قائداً أو كريماً فحسب بل هو النبى المرسل الحبيب لله - عزّ وجلّ - وهو خاتم الرسل وسيد الأنبياء وشفيع البشر فى يوم المحشر وأشرف الخلائق، فهو بأى مرثية حارقة باكية خليق فصفية بنت عبدالمطلب عمّة الرسول عبّرت عن حزنه بهذا المأساة الجليل العظيم الذى وهن العظم وشاب الرأس منها بقصيدة منها:

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا      وَكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكْ جَافِيَا  
وَكَُنْتَ رَحِيمًا هَادِيًا وَمُعَلِّمًا      لِيُنْكَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا

(ابن عبد البر، ١٩٣٩م: ٤٩)

وأما قصيدة السيدة فاطمة الزهراء فهى تتفجّر عاطفة ولوعة، فكلّ بيت فيها يقطر دمعاً بل دمماً، فالحزن يجرى فى قلبها وفؤادها، ويتمثل فى حركاتها وسكناتها، بل فى كلّ بيت من أبياتها، وفى رثاءها شاركت الطبيعة فاغبرّت آفاق السماء، وكوّرت الشمس، وأظلم النهار، واضطربت الأرض، حتّى أنّ الأرض شاركت المسلمين فى مصيبتهم فمالت



جوانبها ومادت تحت أقدام المسلمين، وفاطمة الزهراء قد عاشت ذات حمية والرسول لها جناح، فبعده أَعْضَتْ طرفها لأنه قد مات خير فوارسها وسلاحها، حضرت المنية فتمكنت جمر الغضا بجراحها، ويدعو من الله الصبر على ما حلَّ بها لأنه مات الرسول وانظفاً مصباحها. فتقول في أبيات من مرثية للرسول:

إِغْبَرَ آفَاقُ السَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ	شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ
فَالْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ كَثِيْبَةٌ	أَسْفًا عَلَيْهِ كَثِيْرَةَ الرَّجْفَانِ
فَلْيَبْكِهِ شَرْقُ الْبِلَادِ وَغَرْبُهَا	وَلْيَبْكِهِ مُضَرٌّ وَكُلُّ يَمَانِي
وَلْيَبْكِهِ الطُّودُ الْمُعْظَمُ جَوْهُ	وَالْبَيْتُ ذُو الْأَسْتَارِ وَالْأَرْكَانِ
يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ الْمُبَارَكِ صَنُوهُ	صَلَّى عَلَيْكَ مُنْزَلُ الْقُرْآنِ

(القبرواني، لاتا: ١٧٢)

ومن هذه المراثي في الرسول مرثية حسان الدالية الشهيرة التي امتازت باللوعة والبراعة ونحن نريد أن نحللها تحليلاً فنياً لكي يظهر تأثير الإسلام فيها ولهذا نرى من الضروري أن نأتي بها كاملة ونفسرها تبييناً للقارئ الكريم.

### رثاء الرسول<sup>١</sup>

١. بِطَيْبَةِ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ
٢. وَلَا تَنَمَحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
٣. وَوَاضِحُ آيَاتٍ وَبَاقِي مَعَالِمِ
٤. بِهَا حُجْرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطَهَا
٥. مَعَالِمٌ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيَهَا
٦. عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ
٧. ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَاسْعَدْتُ

١. مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفَّوْا الرُّسُومُ وَتَهَمُّدُ
٢. بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ
٣. وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ
٤. مِنْ اللَّهِ نُورٌ يَسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ
٥. أَتَاهَا الْبَلْبَى فَالْآيُ مِنْهَا تَتَجَدَّدُ
٦. وَقَبْرًا بِهِ وَارَاهُ فِي الثَّرْبِ مُلْحَدُ
٧. عُيُونٌ وَمِثْلَاهَا مِنْ الْجَفْنِ تُسْعَدُ

١. (من الطويل الثاني: فعولن مفاعيلن فعول مفاعلن)



٨. تَذَكَّرُ آلاءَ الرَّسُولِ وَمَا أَرَى
٩. مُفَجَّعَةً قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحْمَدِ
١٠. وَمَا بَلَغَتْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَشِيرَهُ
١١. أَطَالَتْ وَقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهْدَهَا
١٢. فُبُورِكَتْ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ
١٣. وَبُورِكَ لِحْدُ مِنْكَ ضَمْنٌ طَيِّبًا
١٤. تَهْيِيلٌ عَلَيْهِ التُّرْبُ أَيْدٍ وَأَعْيُنٌ
١٥. لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً
١٦. وَرَاخُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيَّهُمْ
١٧. يَبْكُونَ مِنْ تَبْكِي السَّمَاوَاتِ يَوْمَهُ
١٨. وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةٌ هَالِكِ
١٩. تَقَطَّعَ فِيهِ مُنْزَلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ
٢٠. يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَانِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ
٢١. إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا
٢٢. عَفُوٌّ عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ
٢٣. وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْدِهِ
٢٤. فَبَيْنَاهُمْ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ بَيْنَهُمْ
٢٥. عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهُدَى
٢٦. عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يَتْنَى جَنَاحَهُ
٢٧. فَبَيْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ التُّورِ إِذْ غَدَا
٢٨. فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إِلَى اللَّهِ رَاجِعًا
٢٩. وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَرَمِ وَحَشًا بِقَاعِهَا
٣٠. فَفَارًا سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافَهَا
٣١. وَمَسْجِدُهُ فَالْمُوحِشَاتُ لَفَقْدَهُ
٣٢. وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى لَهُ تُمْ أَوْحَشَتْ
- لَهَا مُحْصِيًا نَفْسِي فَنَفْسِي تَبَلَّدُ
- فَطَلَّتْ لِآلَاءِ الرَّسُولِ تُعَدُّ
- وَلَكِنَّ نَفْسِي بَعْضُ مَا فِيهِ تَحْمَدُ
- عَلَى طَلَلِ الْقُبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ
- بِلَادٌ تَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
- عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحِ مُضَدُّ
- عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعُدُ
- عَشِيَّةَ عَلْوِهِ التَّرَى لايُوسَدُ
- وَقَدْ وَهَنْتْ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
- وَمَنْ قَدْ بَكَتَهُ الْأَرْضُ، فَالنَّاسُ أَكْمَدُ
- رَزِيَّةَ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ
- وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيُنْجَدُ
- وَيُنْقَدُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشَدُ
- مُعَلِّمٌ صِدْقٍ إِنْ يَطْبِعُوهُ يَسْعُدُوا
- وَإِنْ يَحْسِنُوا فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجُودُ
- فَمَنْ عِنْدَهُ تَيْسِيرٌ مَا يَتَشَدَّدُ
- دَلِيلٌ بِهِ نَهَجَ الطَّرِيقَةَ يَقْصَدُ
- حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا
- إِلَى كَنْفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيْمَهْدُ
- إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصَدُ
- يَبْكِيهِ جَفْنُ الْمُرْسَلَاتِ وَيَحْمَدُ
- لِغَيْبَةِ مَا كَانَ مِنَ الْوَحْيِ تَعْهَدُ
- فَقِيدٌ يَبْكِيهِ بِلَاطٍ وَعَرْقَدُ
- خَلَاءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ
- دِيَارٌ وَعَرَصَاتٌ وَرِنَعٌ وَمَوْلِدُ



٣٣. فَبَكِّي رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةَ  
 ٣٤. وَمَا لِكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي  
 ٣٥. فُجِدِي عَلَيْهِ بِالدُّمُوعِ وَأَعُولِي  
 ٣٦. وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ  
 ٣٧. أَعَفَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ  
 ٣٨. وَأَبْدَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ  
 ٣٩. وَأَكْرَمَ حَيًّا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى  
 ٤٠. وَأَمْنَعُ ذُرُواتٍ وَأَثْبَتَ فِي الْعُلَى  
 ٤١. وَأَثْبَتَ فِرْعَا فِي الْفُرُوعِ وَمُنْبِتًا  
 ٤٢. رَبَّاهُ وَوَلِيدًا فَاسْتَتَمَّ تَمَامَهُ  
 ٤٣. تَنَاهَتْ وَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ  
 ٤٤. أَقُولُ وَلَا يَلْفِي لِقَوْلِي عَائِبٌ  
 ٤٥. وَلَيْسَ هَوَائِي نَازِعًا عَن تَنَائِهِ  
 ٤٦. مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جِوَارَهُ
- وَلَا يَعْرِفَنَّكَ الدَّهْرُ دَمْعَكَ يَجْمَدُ  
 عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَعَمَّدُ  
 لِفَقْدِ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرُ يُوْجَدُ  
 وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يَفْقَدُ  
 وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلًا لَا يَنْكَدُ  
 إِذَا ضَنَّ مَعْطَاءً بِمَا كَانَ يَنْلُدُ  
 وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يَسُودُ  
 دَعَائِمَ عِزٍّ شَاهِقَاتٍ تُشِيدُ  
 وَعُودًا غَدَاةَ الْمُزْنِ فَالْعُودُ أَغِيدُ  
 عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ رَبِّ مُمَجَّدُ  
 فَلَا الْعِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلَا الرَّأْيُ يَنْفَدُ  
 مِنَ النَّاسِ إِلَّا عَاذِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ  
 لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلُدُ  
 وَفِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ

(الأَنْصَارِيُّ، ١٩٨٠م: ١٤٥)

### تحليل المعنى

بأرضٍ طيبةٍ أثرٌ ومنزلٌ للرَّسُولِ (صلوات الله عليه) وهذا المنزلُ يَنيبُ في حالة أنَّ الرسومَ والآثارَ تَندرسُ وتصبحُ أرضاً هَامِدةً كأنَّها لم يكنْ بها حياةٌ. لا تَعْفُو العلاماتُ من دارِ الحرمةِ والقداسةِ، وبهذه الدَّارِ المنبرُ الذي كان يصعدُهُ الهادي (صلوات الله عليه). وبها علاماتٌ واضحةٌ ومعالمٌ باقيةٌ وربيعٌ للرَّسُولِ ومسجدٌ. وبها منازلٌ كان ينزلُها الرَّسُولُ الَّذِي هو نورٌ من الله، ويطلبُ من هذا النورِ ضوءٌ ويوقدُ. وفيها معاهدٌ لم تُغيَّرْ علاماتها وإن أتى عليها البلى، فالآياتُ من الذكرِ الحكيمِ تتجددُ في هذه المنازلِ بتلاوتها. عرف الشاعرُ بهذه المعاهدِ رسمَ الرَّسُولِ وعهدهَ وقبراً وارى لحدّه النبيَّ في الترابِ. مازال يبكي في هذه المنازلِ على وفاةِ الرَّسُولِ، فأعانتَه عيونُه بسيلانِ الدَّمُوعِ، وجديرٌ بعينه أن تساعدَه بتزارفِ الدَّمُوعِ. يتذكَّرُ نعمَ الرَّسُولِ فيحاولُ إحصاءَها فيراها لا تُحصى

كثرةً ويرى نفسه في حيرة. نفسه موجعةً مؤلمةً لهفانٌ على فاجعةٍ وفاة الرسول ويضمهرها فقد أحمدَ وهزلها، فظلمتْ تُحصي نِعَمَ الرسولِ وبركاته. وما بلغتْ في كلِّ أمرٍ عشره ولكنَّ تحمداً بعضُ ما في كلِّ أمرٍ. وأطال الشاعر وقوفاً على طللِ القبرِ الذي فيه الرسولُ والعينُ تجري الدموعَ بكلِّ جُهدِها وتعطي كلَّ ما لديها من العبرات.

يخاطب الشاعر القبر ويقول: يا قبرَ الرسولِ جعلَكَ اللهُ مباركاً وأدامَ لك التمجيدَ والكرامةَ، وبوركَتْ بلادُ أقامَ فيها الرسولُ الهادي الرشيدُ الذي أعطاهُ اللهُ السَّدادَ والرَّشادَ. وبوركَ لحدِّ ضُمنَ نبياً ذا الفضلِ والخير.

ويشير إلى تدفين الرسول قاتلاً: وفي الوقت الذي تهيل الأيدي الترابَ على جسمه المبارك تجرى الأعينُ الدموعَ عليه وتذرفها مدراراً. ولقد دفنوا حلماً وعلماً ورحمةً عشاءً علّوا جسمه الطاهر الترابَ إذ لا متكأً ولا مخدةً. دفنوا نبينهم وجاءوا بحزنٍ ومأتمٍ ليس نبينهم بينهم ليشاطرهم في الأحزان والأشجان وقد ضعفتْ ظهورهم ووهنت أعضدهم لشدة هذه المصيبة الفادحة. سيكون بكاءً شديداً لفقد النبي الذي تبكى عليه السمواتُ والأرضُ يومَ استأثر اللهُ به، ومن قد بكته السماواتُ والأرضُ حزناً على فقده، فالتأسُ أشدُّ حزناً وغماً على وفاته. وما ساوت يوماً مصيبةٌ ميتٍ مصيبةٌ يومَ توفى فيه رسولُ الله.

في هذا اليومِ تقطعُ النبيُّ الذي هو منزل الوحي عنهم وقد كان النبيُّ ذا نورٍ ثاقبٍ يبلغُ جميعَ الأمكنةِ بما فيها من أرضٍ منخفضةٍ وجبالٍ مرتفعةٍ. والنبيُّ يرشدُ من يتبعه ويجعله قدوةً إلى الرحمان سبحانه وينقذه من عاقبةِ الكفر والضلالِ والشقاءِ في الدنيا والعذابِ في الآخرة. وهو إمامٌ لهم ويهديهم إلى سبيلِ الرَّشادِ والحقِّ باذلاً مجهوده، وهو معلمٌ صادقُ القولِ والفعلِ لهم، وإن يطيعوه يسعدوا. وهو كثيرُ التجاوزِ عن الخطيئاتِ وهو يقبلُ عذرهم ويتركُ العقابَ عليهم شفقةً، وإن يفعلوا الأعمالَ الحسنَةَ ويتركوا الأعمالَ السيئةَ فاللهُ يجزيهم بحسناتهم وهو أجودُ بالخير. وإن نابتهم نائبةٌ، فإن رسولَ الله كان يسهلها ويكشفُ غمَّتها وعنده تيسيرٌ ما يتصلَّبُ.

بينما هم في نعمةِ الله مغروقون وهذه النعمةُ وجودٌ دليلٌ به يقصدُ وضحُ الطريقِ... إذ استأثر اللهُ بالرسول.



وعزیزٌ على النبی أن تحید أُمَّتَهُ عن الهدی والصواب، وهو حریصٌ على استقامتِهِم على سبیلِ الحقِّ واهتداءِهِم على مهجَّةِ الطریقِ. النبی مشفقٌ علیهم، بارٌّ بهم، وهو یحنو علیهم یرحمُهُم. فبینما هم یتمتعون بنعمة وجودِهِ یرعشون فی ضوء ذلك النور البهیّ بینهم، إذ ذهب إلى نورهم بالغداة سَهْمٌ مصیبٌ من الموت فأخمد نورهم وكدرَ عیشَهُم. فأصبح الرسولُ راجعاً إلى الله محموداً فی حالة تبکی علیهِ أعینُ الملائكة بكاءً وتحمدهُ حمداً. وأمسَتْ بلادُ مكة وما اتصل بها من الحرم بقاعها موحشةً لانقطاع الوحي الذي كانت تعهده عنها لغیبة الرسول. مُقفرةٌ موحشةٌ ما عدا قبراً نزلَ به الفقیدُ. ویبکی علیهِ البلاطُ والفرقدُ ومسجدهُ لفقدها إیاه، وله قیامٌ وقعودٌ فی هذه الأمكنة قبل وفاته. وكذلك أقفرت منه وأوحشت ديارٌ وعرصاتٌ بالجمرة الكبرى وربیعٌ ومولدٌ.

فحسان یخاطب عینه، ویقول: فأسفحی یا عینی على رسولِ الله عبرةٌ بعد عبرةٍ ولستُ أظنُّ دمعك یجمدُ طولَ الدهرِ، بل ینصبُّ على فراقِ الرسول. ویا عینُ ما لك لا تبکینَ على الرسولِ المُنعمِ الذي نعمهُ على الناسِ كاملةً تامَّةً یغمُرُ كلَّ أحدٍ ویسترُ كلَّ فقیرٍ معوزٍ. یا عینُ فاجری الدموعَ الهاطلاتِ على فراقه، وجودی علیهِ بالبكاءِ والعویلِ لفقْدِ الحبيبِ الذي لا یأتی الدهرُ بمثله.

وما فقدتُ الأممُ الغابرةُ أحداً مثلَ محمدٍ ولا یفقدُ مثلهُ حتی یومِ القیامة. وما فقدَ الدهرُ أعفَّ خلقاً وأوفى عهداً وأقربَ عطاءً غیرَ منکدٍ ونائلاً غیرَ قليلٍ منه. وما فقدَ الدهرُ أبذلَ منه للمالِ المكتسبِ والموروثِ إذا بخلَ الکریمُ المعطاءُ بماله. وأکرَمَ حیاءَ فی الأحياءِ إذا انتسبَ وأکرَمَ جدًّا أبطحياً یعطى سیادةً. وأمنعَ شموخاً، وأثبتَ دعائمَ عزٍّ ومجدٍ. وأثبتَ فرعاً فی الفروعِ وأحکمَ منبتاً وعوداً من الرسولِ غداةَ یأتی السماءُ بالمطر، وعودُ الرسولِ أكثرُ نعومةً.

ویشير حسانٌ إلى حدیثِ النبی صلوات الله علیهِ: «عَلَيْهِ أَدَبَتِي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي» ویقول: رباهُ اللهُ المُعظَّمُ صغیراً فطیماً فاتمَّ تأدِيبِهِ وأكملَ کماله على أکرَمِ الخیراتِ. إذ إنَّ رسولَ اللهُ أدبه رُبُهُ فلا بُدَّ أن كان المسلمونَ یتلقونَ من الرسولِ علماً لا علمَ بعده لأنَّ العلومَ كانتُ فی قبضةِ یدِهِ، ویتعلمونَ منه آراءَ لا یأتیها الباطلُ ولا یرضُّها الخطأُ، وفی نهايةِ مرثیتِهِ یذكرُ مکارمَ أخلاقه فیها ولا یوجدُ عائبٌ من الناسِ یلومُهُ علیها إلا ذو هواءٍ

وحلوم وعقول ناقصة. ويسألُ برثائه جوارَه، ويسعى لنيلِ ذلكِ اليومِ. وليس بنازعِ حبه عن تنائه، لعلَّ ببناءه أصبح مُخلداً في جنَّةِ الخلدِ.

### دراسة فنية للقصيدة

مطلع القصيدة: قد حرص حسان حرصاً كبيراً على تجويد مطلع قصيدته واختيار ألفاظها وتركيز معانيها وتجديد موسيقاها، ويكون المطلع حلواً سهلاً، وفخماً جزلاً بعيداً عن التعقيد؛ فنافذة القصيدة مستشفة من خلالها على ما بداخلها، وموحية بموضوع القصيدة ومبينة عن مقصد الشاعر في قصيدته. وفي مطلع هذه القصيدة نوع من الإبداع والابتكار في وضع المطلع الغزلي الطللي لقصيدة قيلت في الرثاء، وفي إدماج فن الرثاء بالغزل، لأن المراثي الشعرية قبل الإسلام قد كانت تستهل على الأغلب بأنواع محددة من المطالع، على أن أغلبها كانت تفتتح بالمطالع البكائية من مخاطبة العين ووصف الدموع، وطلب الثأر وإظهار الحزن وشكوى الدهر على سبيل المثال مطلع مرثية الخنساء:

أَلَا يَا عَيْنٍ فَانْهَمِرِي بِغُدْرٍ      وَفِيضِي فَيَضَهُ مِنْ غَيْرِ نَزْرٍ  
(الخنساء، ٢٠٠٠م: ٤٤)

ومطلع مرثية أوس بن حجر:

أَيْتَهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا      إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا  
(أوس بن حجر، ٢٠٠١م: ٤٨)

ومطلع مرثية امرئ القيس:

أَلَا يَا عَيْنُ بَكِّي لِي شَنِينًا      وَبَكِّي لِي الْمُلُوكَ الذَّاهِبِينَ  
(امرؤ القيس، ٢٠٠١م: ١٥١)

ويمكن لنا استماع أصداء الوقوف بالربع والأطلال في مطالع المعلقات في هذه القصيدة ولكن استخدام هذا المطلع للمرثية فيه الجدة والخلق. فالمطلع بكائي ذو عاطفة جياشة وصورة مبتكرة موحية، والبكاء ليس للحبيبات الطعينات اللواتي ترحلن إلى منتجع آخر، بل البكاء لحبيب الله الذي ارتحل إلى جوار ربّه الكريم ولا عودة لرحيله. فحسان في هذا المطلع يشير إلى دار الحبيب ويستهل مرثيته «بَطَيْبَةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ»



وطيبةً ملتقى زيارته مع حبيبه والحبیب هو الذى سمّاها بهذا الاسم. ويعبر عن حبيبه «بالرسول» إذعائاً له بالرسالة ويكون معهد الرسول منيراً فالإنارة والرسول وطيبة كلمات توحى بمغزى المراثية. ويشير الشاعر إلى تميز رسوم الرسول من رسوم الطعائن بالإنارة وعدم الاندراست. ومزج المطلع التقليدى بالمطلع الإسلامى تنم عن قدرة شعرية فى تطويع الأساليب التقليدية وتوظيفها توظيفاً جيداً يخدم المراثية ولا يكون عبئاً عليها. وذلك باستحداث معان وصور جديدة، وظهور المعنى الإسلامى فى مطلع القصيدة. واستجداد فاتحة القصيدة بهذه المعانى السامية يعبر عن روح التقوى والفكر والإبداع فى حسن.

أما الخاتمة أو المقطع فاشترط لها أن تكون من معان مؤسية، وعلى هذا النهج جاء عدد من المعانى المؤسية فى مراثى صدر الإسلام على صورة الدعاء حيث يدعو الشاعر للمرثى فى الخاتمة. ومن ذلك الدعاء من حسن فى ختام قصيدة له فى رثاء النبى:

صَلَّى إِلَهُ وَمَنْ يَحْفُ بِعَرْشِهِ وَالطَّيْبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ الْأَحْمَدِ

ولكن فى هذه القصيدة يدعو الشاعر لنفسه لا للمرثى، لأن المرثى هو خاتم النبیین وأشرف المرسلين وشفيع يوم الدين وهو مطهر على خلق عظيم، وهو المصطفى والحبیب والرسول لله. والشاعر يتعلّق هواه بثنائه لعله أصبح مخلداً فى جنّة الخلد مع المصطفى ويرجو بثنائه له جواره، ويسعى فى نبيل ذلك المقام قائلاً:

وَلَيْسَ هَوَاى نَازِعاً عَن تَنَائِهِ لَعَلَّى بِهِ فِى جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلُدُ  
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جَوَارَهُ وَفِي نَيْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ

(الأنصارى، ١٩٨٠م: ١٥٣)

ويتعزى الشاعر حينما يذكر فى آخر مراثيته مصير المرثى، والعقيدة الإسلامية فتحت الآفاق أمام النفس البشرية وأخرجتها من طوق الفنا الضيق، فحسن مطمئن موقن تماماً أنّ النفس الصالحة للنبى مصيرها الجنّة ولا يرى باعثاً هنا إلى البكاء والعويل، وإذ شتان بين من هو فى النعيم مخلد وبين من هو فى السعير مقيم.

فالخاتمة متناسبة متوافقة مع المطلع وهذا الثلاثم يزداد القصيدة جماليةً ووحدةً فكريةً، وتحتوى الخاتمة على أساليب جديدة، وتعكس مقدرة الشاعر وحرصه على



تماسك مرثيته واكتمال جوانبها الفكرية والفنية.

وأما المقدمة: فقد كانت المقدمتان الغزلية والطللية تمتلآن أغلب مقدمات مرثي ما قبل الإسلام، ولعلهما النوعان الفريدان، ومرثي صدر الإسلام أوفر حظاً من سابقتها، فهناك ميل لقسم من الشعراء إلى استخدامها مع شيء من الإبداع، ففي هذه المرثية نجد الأطلال في المقدمة إلا أنها ليست أطلال امرأة طعينة أو قوم مرتحلة، إنها أطلال من نوع خاص، إنها مدينة الرسول (ص)، وفيها آثاره التي بناها هو وسعى في إعمارها، ولما وافته المنية وغادرها لم تكن الرسوم لتنمحي بل الآيات واضحة والمعالم باقية تتجدد دوماً وهي آثار حضارية حية.

إن وقوف الشاعر على هذه الأطلال ليس وقوفاً تقليدياً، بل هو من صميم فكرة المرثية الإسلامية فالمسجد والمنبر والحجرات والمصلّى وغيرها كلّها رموز للدين الإسلامي الحنيف. وكأنّ الشاعر قد أنسى تأريخ هذه المدينة واسمها القديم ومعالمها العريق، فتأريخ بناء هذه الديار تأريخ حلول الحبيب بها واسمها طيبة لأنها تطيب بالرسول والحبيب هو حبيب الله والشاعر والمسلمين جميعاً، ولهذا حسان يبين حزنه وحزن المسلمين على ارتحال الحبيب والأمر ليس رحلة عادية بل هو وفاة النبي وانقطاع الوحي واختتام المرسلين. وهكذا نرى أنّ شاعر الرسول وظف الظل في خدمة مرثيته ولم يكن مقلداً وأطلاله تختلف عن أطلال الشعراء الجاهليين.

وأما طول القصيدة: فإنّ المرثي الشعرية في صدر الإسلام قصيرة، وإنّ طول الغالبية العظمى من المرثي في العهد الإسلامي الأول يتراوح بين أربعة إلى عشرة أبيات، وطول المرثية يكون من المسائل المهمة في استيعاب جوانب التجربة الشعورية المتكاملة ونقل شدة الألم وانتقال العاطفة والحزن المكتوم في طوايا قلب الشاعر، ولكنّ المرثي المشهورة التي تُعدّ من عيون المرثي لوجودتها وقوتها في صدق العاطفة وانتقالها هي المرثي الطوال فبلغت مرثية حسان هذه في الرسول (٤٦) بيتاً، ومرثية أبي ذؤيب الهذلي في أبنائه (٦٨) بيتاً، ومطلعها:

أَمِنْ الْمَنُونِ وَرَبِّهَا تَتَوَجَّعُ      وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْرَعُ

(الضبي، ١٩٩٥م : ٤١١)



ومرثية مُتمِّم بن نويرة في أخيه تقع في (٥٧) بيتاً ومطلعها:  
 لَعْمَرَى، وما دَهْرِي بتأيينِ مالِكِ      ولا جَزِعٌ مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا  
 ومرثية حسان تُعدُّ أطول قصيدة في ديوانه، وهذه المرثية التي بلغت هذا المبلغ من  
 الطول قد بُنيت على فكرة أراد الشاعر من خلالها تسجيل موقف الحزن والألم الذي عمَّ  
 المسلمين بعد موت النبيِّ.

وأما الوحدة الفنية في القصيدة: فنحن نجد في هذه القصيدة هيمنة إحساس واحد  
 والحزن المنبعث عن فداحة فقد الرسول ونحس شعوراً واحداً أو رؤية نفسية ذات لون  
 محدّد، والصور الشعرية بكلِّ أشكالها المجازية والحقيقية وسيلة الشاعر لتجسيد هذا  
 الإحساس بالحزن والألم. وحسان يحقق هذه الوحدة في بنائه للقصيدة بأن يرتب  
 موضوعاته ترتيباً على النمو المطرّد، بحيث تتكامل أجزاء القصيدة في توضيح عاطفتها  
 المسيطرة واتجاهها الموحد، حتّى إذا قرأنا القصيدة ازددنا بالتدرّج دخولاً في عاطفته  
 وبصراً باتجاهها، فتركت المرثية في النهاية أثراً فنياً موحداً لم نشعر فيه بخلل أو تناقض  
 أو انتكاس من الشاعر عن اتجاهه الذي كان يتّخذه.<sup>٢</sup> وهكذا فإنّ هذه المرثية قامت  
 على أساس تنمية الشاعر لأقسامها تنمية عضوية بحيث نشأ كلُّ جزء من سابقه نشوءً  
 طبيعياً مقنعاً، واستدعى الجزء الذي يليه استدعاءً حتمياً حتّى تكاملته أجزاء المرثية التي  
 شملتها عاطفة واحدة، وطبعت في نفس الملتقى إحساساً واحداً، فكان لها أثر جمالي  
 واحد.

أما اللغة: وقد أثر الإسلام في المراثي، فقد اكتسبت المرثية لغات كثيرة، فعقيدة  
 الإسلام بيوم الحساب والحياة الباقية فتحت أفقاً آخر للشاعر يشرب من منهلها فشرع  
 يتحدث عن الجنّة ونعيمها ودرجاتها، والنار وسعيرها ودركاتها، فالصلاة، والثواب  
 والرحمة والشفاعة، والملائكة والعرش والحشر، وغير ذلك ممّا لا يخفى أثره، وإنّ  
 الجهاد الإسلامي ساهم في شيوع الألفاظ الإسلامية الكثيرة تتعلق بالموت، وإنّ التوجّه  
 الإسلامي أثر كبيراً في شيوع الألفاظ المدنية والحضارية. وفي المقابل نرى تراجعاً

١. انظروا إلى القصيدة بكاملها في المجاني الحديثة، فؤاد أفرام البستاني، المجلد الثاني، ص ٦٣.

٢. للمزيد من الاطلاع على الوحدة الفنية في القصيدة انظروا إلى: النويهى: محمد. ١٩٩٩م.

واضحاً وانحساراً بيناً في مفردات المراثية الجاهلية، وبالإسلام هدمت أسطورة الدهر، وشكوى من منونها وربيبها، كما أنّ العرب تخلّصوا من الهام والصدى والبليّة، وحلّت محلّها مفردات الصبر والقضاء والقدر والإيمان. وإنّ عموم الشعر في صدر الإسلام قد اتّجه نحو الليونة والسهولة والوضوح متأثراً بأسلوب القرآن الكريم الساطع منعكساً الحياة المدنية الجديدة.

ففي هذه المراثية نرى تحولاً بيناً في لغة الشعر من حيث الإغراب والقوّة إذ أنّ المراثية قد اتّجهت نحو الليونة والوضوح بعيداً عن الإغراب والتعقيد مثلاً حسن جاء بألفاظ سهلة من المعاني الإسلامية في قوله:

بِهَا حُجْرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطُهَا	مِنْ اللَّهِ نُورٌ يَسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً	عَشِيَّةً عَلَّوهُ الثَّرَى لَا يُوَسِّدُ
عَفُو عَنْ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ	وَأِنْ يَحْسِنُوا فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ	وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يَفْقَدُ

فالآبيات في نهاية السهولة والقصيدة مشحونة باللغات الإسلامية السامية كالرسول، والآيات، ودار الحرمّة، ومنبر الهادي، والمصلّي، ونور الله، والمسجد، وأحمد، والرشيد، المسدّد، والنبّي، والرحمة، والرحمان، ومنزل الوحي، والحمد، ومحمد، ومحمود، والهدى، والإهداء، والنور، والجمرة الكبرى، والعرضات، والقيامة، والأبطحي، والجنة، والخلد، والمصطفى. اللغات السهلة المجنّدة، والمعاني السامية، والعبارات المبكية والمضامين المثيرة للحنن والمجلبة للدمع في المراثية تعمل على إشاعة جو من التفاعل العاطفي المباشر بين المراثية والقارئ.

وأما أسلوب القصيدة: فالأسلوب هو الطريقة في نظم الشعر والنثر، وإنّه المنوال الذي ينسج التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه. و«إنّ تأليف النصّ الأدبي يحتاج إلى قدرة فنية كبيرة لإيصال الرسالة الأدبية إلى القارئ. وهذه القدرة الفنية مكنونة في أسلوب الأديب.» (فصلية التراث الأدبي: العدد الرابع: ٣٨)

وإنّ الأساليب تتنوع بحسب مسالك الشعراء ومضمون الشعر، والأسلوب في الرثاء يجب أن يكون شاجي الأقاويل، مبكى المعاني، سهل الألفاظ. وحسّان في استخدامه





الفنّي للغة في هذا الإبداع الفنّي يستخدم الأسلوب التعبيري والتقريرى كليهما، وفي كلّ منهما استطاع أن يوصل صوته ويعبر عن موقفه من عواطفه وحزنه وحنينه. فلجأ إلى الأسلوب التعبيري في بيان أحزانه واستدراار دموعه فيقول:

فَبِكِّي رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةٍ      وَلَا أَعْرِفَنَّكَ الدَّهْرُ دَمْعُكَ يَجْمَدُ  
وَمَا لَكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النُّعْمَةِ الَّتِي      عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَعَمَّدُ  
فَجُودَى عَلَيْهِ بِالْذُّمُوعِ وَأَعُولِي      لَفَقَدَ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرُ يَوْجُدُ

ولجأ إلى الأسلوب التقريرى في أبيات أخرى منها:

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ      وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يَفْقَدُ  
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهُدَى      حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا

وتابعت هذه المرثية شيئاً من أساليب ما قبل الإسلام وهو التكرار اللفظي في اللغات فمثلاً نرى حسان يكرر «رسم الرسول، وآلاء الرسول، وبورك قبر، ويبكون، والنور، و...» مراراً في الأبيات التالية:

بَطِيئَةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدٍ      مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ  
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ      وَقَبْرَاهُ بِهِ أَرَاهُ فِي الثُّرْبِ مُلْحَدُ  
تَذَكَّرُ آلَاءَ الرَّسُولِ وَمَا أَرَى      لَهَا مُحْصِيًّا نَفْسِي فَنَفْسِي تَبَلَّدُ  
مُفَجَّعَةٌ قَدْ شَنَّهَا فَقَدْ أَحْمَدُ      فَظَلَّتْ لِآرَاءِ الرَّسُولِ تُعَدُّ  
فَبُورِكَتْ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ      بِلَادٌ نَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ

وقد استطاع الشعراء في صدر الإسلام ابتكار أساليب جديدة أضفت على المرثية جواً إسلامياً بهياً وذلك لتأثرهم بالدين الإسلامي السميح، ومثال ذلك الابتكار دعاء الله - سبحانه - أن يرحم المرثى، واستدعاء البركة والرحمة للقبر بدلاً من سقيا القبر والأرض واستنزال الغيث بمخاطبة السحاب والسيل. ونرى الشعر أخذ منهجاً إسلامياً لأن المرثى بموته لا يصير تراباً يختلط بتراب قبره ويتلاشى، بل إنه يعيش في قبره حياة برزخية يحتاج في كل لحظة إلى الرحمة والبركة الربانية. وحسان يسمي فقيدته الرحمة والنعمة والنور، الفقيد الذي تبكي عليه السموات والأرض والناس قائلاً:

١. أنظروا إلى القصيدة بكاملها في شرح ديوان حسان بن ثابت، ص ١٤٧ وما يليها.

فَبَيْنَاهُمْ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ بَيْنَهُمْ      دَلِيلٌ بِهِ نَهَجُ الطَّرِيقَةِ يَقْصِدُ  
يَبْكُونَ مَنْ تَبَكَّى السَّمَاوَاتُ يَوْمَهُ      وَمَنْ قَدْ بَكَتُهُ الْأَرْضُ، فَالْتَّاسُ أَكْمَدُ

(الأنصاري، ١٩٨٠م: ١٤٧)

وهناك نماذج كثيرة أخرى تدلُّ على عمق وإيمان الشاعر بالعقيدة الإسلامية وانعكاس حلول الرضا والسكينة بدلاً من الشكوى واليأس في قلبه لأن المرثي مخلدٌ في جنان الخلد. قائلًا:

مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَلِكَ جَوَارَهُ      وَفِي نَيْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ

(المصدر نفسه: ١٤٩)

وإذا كُنَّا في مقام الحديث عن اللغة والأسلوب فأحقُّ بنا أن نشير إلى التآثر الواضح للمراثي على العموم ومرثية حسان على الخصوص بالقرآن الكريم. نرى هنا أنهم تأثروا بالقرآن الكريم في ألفاظه الجميلة السهلة ونظمه الحسن وأسلوبه البديع وبيانه الساحر ولإعجابهم به آثروا الاقتباس من نوره، فحسان بن ثابت يتأثر بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) ونرى هذا التآثر في قوله:

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهُدَى      حَرِيصٌ عَلَيَّ أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا

(الأنصاري، ١٩٨٠م: ١٤٩)

وبقوله تعالى في تسمية الرسول بأحمد: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦) في قوله:

أَطَالَتْ وَقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهْدَهَا      عَلَيَّ طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ

(الأنصاري، ١٩٨٠م: ١٤٦)

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٦٧) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ (الصف: ٩) في قوله:

إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا      مُعَلِّمٌ صِدْقٍ إِنْ يَطِيعُوهُ يَسْعُدُوا

(الأنصاري، ١٩٨٠م: ١٤٨)

وأما الصورة: فنلاحظ في هذه المرثية أن حسانا حاول أن يبين الصورة على إبراز



دور الرسول في بناء الأمة الإسلامية، وذلك يتم له من خلال رسم رمزي لهذا المجتمع ومن ثم ملاحظة ما عرض له بعد وفاته، معبراً عنه بطيبة رمزاً لذلك المجتمع، وقد كانت فيما مضى يثرّب مدينة النزاع الموقع بين الأوس والخزرج، ولم تعرف طيبة العيش بسبب الحروب وتردى الأوضاع. أمّا بمجيئه فقد انقلبت الحال، وأصبح جميع الناس على اختلاف أديانهم يعيشون الحياة الطيبة، وقد ربط هذا المجتمع بالسماء عن طريق الوحي.

وفي بداية المراثية يستغلّ الشاعر وقوفه بتلك الآثار ليعرض لنا حزنه وبحكمته وبعد نظره وإيمانه العميق يصوّر لنا أنّ نفسه لن تبلغ إحصاء آلاء الرسول. ويعرض في أثناء تصاعد القصيدة بقبر الرسول ويتحدّث من خلاله عن حال المؤمنين عن دفنهم الرسول وعودتهم ويستغلّ الشاعر هذا الموقف ليقحم العاطفة هنا، فيقول:

وَبُورِكَ لِحَدِّ مَنْكَ ضُمَّنَ طَيْباً      عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدُّ  
تَهِيلٌ عَلَيْهِ التُّرْبُ أَيْدٍ وَأَعْيُنٌ      عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعُدُ

يريد أنه يوضّح في الصورة أنه في الوقت الذي تهيل الأيدي التراب عليه وقت دفنه تهيل الأعين الدموع عليه وتغور الأسعد. ولكنّ عدداً من صور القصيدة فقدت روحيتها الفنية، فلا تدلّ على ترو في رسم الصورة وإختيار ألفاظها ولا على تفاعل عاطفي حقيقي، فعلى سبيل المثال لوشغل عن هذه الصورة (عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدُّ) بالنور المنبعث من القبر ورائحته الزكية العطرة، وحاول أن يوظف رمز القبر الذي أضحي روضة من رياض الجنة لكان أفضل من هذه الصورة. وهناك صورة أخرى تدلّ على عدم الدقة وهو صورة حزن المسلمين وهم عائدون من دفن رسول الله في قوله:

وَرَأَحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيَّهُمْ      وَقَدْ وَهَنْتَ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ

(الأنصاري، ١٩٨٠م: ٤٧)

ولكنه قد برع في خلق صورة تشريك السماء والأرض في البكاء على الرسول في قوله:

يَبْكُونَ مَنْ تَبَكَّى السَّمَاوَاتُ يَوْمَهُ      وَمَنْ قَدَّ بَكَتُهُ الْأَرْضُ، وَالنَّاسُ أَكْمَدُ

(المصدر نفسه: ١٤٤)



وَوُفِّقَ فِي تَصْوِيرِ بِلَادِ الْحَرَمِ وَمَقَامِهِ وَمَسْجِدِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ فِي قَوْلِهِ:  
 وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَرَمِ وَحَشَاءَ بَقَاعُهَا      لَغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الْوُحْيِ تَعَهُدُ  
 وَمَسْجِدُهُ فَالْمُوحِشَاتِ لِفَقْدِهِ      خَلَاءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ

(المصدر نفسه: ١٤٦)

ولحسن صورتان نادرتان في رثاء الرسول وهو تصوير بكاء المرسلات عليه رافقاً بالحمد والآخر القول بانقطاع النظير للرسول الفقيد في الدهر في هذين البيتين:

فَأَصْبَحَ مَحْمُوداً إِلَى اللَّهِ رَاجِعاً      بِيَكِّيهِ جَفْنُ الْمُرْسَلَاتِ وَيُحْمَدُ  
 وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ      وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يَفْقَدُ

(المصدر نفسه: ١٤٦)

## النتيجة

كان ظهور الإسلام مؤثراً على حياة العرب وأدبهم، وغير عقائدهم وأفكارهم، وجاء بمعان رفيعة في الشعر والأدب وهذا التأثير ملحوظ في كل جوانب حياتهم بما فيها مراثيهم الشعرية، ودخل الدين المبين على الرثاء مفردات لم تكن مألوفة من قبل، فقد اكتسبت المراثية لغات كثيرة، فعقيدة الإسلام بيوم الحساب والحياة الباقية فتحت مشرباً جديداً للشعراء، يشربون منه فشرعوا يتحدثون عن الجنة ودرجاتها ونعيمها، والنار ودرجاتها وسعيرها، فالصلاة، والثواب، والرحمة، والشفاعة، والملائكة، والعرش، والحشر مفردات إسلامية دخلت الرثاء بمجىء الإسلام، وإنّ للتوجه الإسلامي أثراً كبيراً في شيوع الألفاظ المدنية والحضارية، وفي المقابل نرى انحصاراً بيناً في المفردات الجاهلية في المراثية. وبالإسلام هدمت أسطورة الأيام والشكوى من ربها وحوادثها، وحلت محلها مفردات الصبر والإيمان، ومالت المراثية إلى السهولة وتوجهت نحو الليونة والتعمق والتأني والتفكير وسارت صوب الإذعان بالحقيقة.

## المصادر والمراجع

القرآن الكريم.



- ابن سعد، ١٣٢٢ق. *الطبقات الكبرى*. المجلد الثاني. ليدن: مطبعة بريل.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. ٢٠٠٠م. *لسان العرب*. الطبعة الخمسون. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- أبو ذياب، خليل. ١٩٩٦م. *شعر الرثاء في صدر الإسلام*. دراسة موضوعية فنية. الطبعة الأولى. لبنان. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
- الأصفهاني، أبو الفرج. ٢٠٠٢م. *الأغاني*. بتحقيق قصي الحسين. الطبعة الأولى. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- امرؤ القيس، بن حجر الكندي. ٢٠٠١م. *الديوان*. بشرح عمر فاروق الطباع. الطبعة الأولى. بيروت: دار الأرقم.
- الأَنْصَارِي، حَسَّان بن ثابت. ١٩٨٠م. *الديوان*. بتحقيق عبدالرحمان البرقوقي. الطبعة الأولى. القاهرة: دار الأندلس.
- أوس بن حجر، ٢٠٠١م. *الديوان*. بتحقيق عمر فاروق الطباع. الطبعة الأولى. بيروت: دار الأرقم.
- البستاني، فؤاد أفرام. ٢٠٠٠م. *المجاني الحديثة*. الطبعة الثالثة. قم: منشورات ذوى القربى.
- الجمحي، محمد ابن سلام. ١٩٧٤م. *طبقات فحول الشعراء*. بتحقيق محمود شاكر. الطبعة الأولى. القاهرة: مطبعة المدنى.
- الخنساء، تماضر بنت عمرو. ٢٠٠٠م. *الديوان*. بشرح عمر فاروق الطباع. الطبعة الأولى. لبنان. بيروت: دار الأرقم.
- الشورى، مصطفى عبدالشافى. ١٩٩٥م. *شعر الرثاء في العصر الجاهلى*. دراسة فنية. الطبعة الأولى. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
- شوقى، ضيف. ١٩٩٥م. *الرثاء*. الطبعة الرابعة. القاهرة: دار المعارف.
- الضبى، المفضل. ١٩٩٥م. *المفضليات*. بتحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون. الطبعة الرابعة. القاهرة: دار المعارف.
- القرطبي، ابن عبدالعزيز. ١٣١٨ق. *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*. الطبعة الأولى. حيدرآباد: لانا.
- القطّ، عبدالقادر. ١٩٧٩م. *في الشعر الإسلامى والأموى*. الطبعة الرابعة. بيروت: دار النهضة العربية.
- القيروانى، أبو الحسن بن رشيق. ٢٠٠٤م. *العمدة في محاسن الشعر وآدابه وتقده*. بتحقيق عبدالحميد هنداوى. المجلد الثاني. بيروت: المكتبة العصرية.
- كعب بن مالك، ١٩٦٥م. *الديوان*. بتحقيق سامى مكى العانى. الطبعة الثانية. بغداد: المعارف.
- النويهى، محمد. ١٩٩٩م. *منهج في دراسة الشعر الجاهلى وتقويمه*. الطبعة الثانية. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.

## المجلات

- فصلية التراث الأدبي، ١٣٨٨ش. السنة الأولى. العدد الرابع. إيران: جامعة آزاد الإسلامية فرع جيرفت.  
مقال عنوانه: «الأسلوب والأسلوبية في المعارضات»، لإنعام پنكه ساز.  
مجلة الأدب المقارن، ١٣٨٨ش. السنة الثالثة. العدد التاسع. إيران: جامعة آزاد الإسلامية فرع جيرفت.  
مقال عنوانه: «بازتاب أمثال قرآن در أشعار ديوان فيض»، لعلی رضا ميرزا محمد.



## موضوعات الحكم والوصايا الفارسية وتوجهاتها

يعقوب بورنجف\*

سيد مجتبی حسینی\*\*

### الملخص

شكلت موضوعات الحكم والأمثال الفارسية، القسم الكبير من الكتب والرسائل المترجمة عن الفارسية وأبرزها في مجال الفكر والأدب. وكانت كذلك تُعرفُ باسم كُتب النصائح أو المواعظ، وهي ترجمة الـ<اندرز> أو الـ<اليند> بالفارسية. يؤكد هذا المقال على أن مثل هذه الكتابات من الجوانب المهمة في الأدب الفارسي بل هي من أركانه. وبعد تقصي الحقائق التاريخية والأدبية خلال العصور المنصرمة، ومراجعة البحوث الدائرة، يظهر لنا بأنَّ للفرس دورا كبيرا في الأدب العربي بما كتبوا فيه، وأغناه بمعارفهم وتناج قرائحهم. وقد نبغ منهم مؤلفون كبار في شتى العلوم العربية واللسانية، وانتشرت اللغة العربية في بلاد فارس، وأصبحت عندهم لغة العلوم والآداب، فتأثر الأدب الفارسي بالأدب العربي إلى حدٍّ بعيد.

الكلمات الدليلية: الحكم، الأمثال، الأدب الفارسي، الأدب العربي.

1. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في بوشهر.
2. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في بوشهر.

Poornajaf12@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٣٨٩/١٠/١ هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/٣/١٨ هـ. ش